{إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}

تأليف الدكتور

سيف الإسلام حسين عبد الباري

دار الأبرار بالمنصورة

اسم الكتاب:

{قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}

[سورة يوسف: من الآية: ٨٦]

المؤلف:

الدكتور سيف الإسلام حسين عبد الباري

دار النشر: دار الأبرار المنصورة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٤٣٨٧/ ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٦١٨-٣٠١-٠٠٩-٥ ISBN

تحذير:

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ودار النشر والتوزيع وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكتروني أو نقله بأي وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أي نحو دون أخذ موافقة كتابية مسبقة من المؤلف

دار الأبرار بالمنصورة

تليفون: ٠٥٠٢٢٢٥٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}

[سورة البقرة، الآيات: ١٥٤ : ١٥٧]

المقدمة

(إنما أشكو بثي وحزني إلى الله)

وكيف لا يكون ربي هو ملاذي وملجأي، وقد خلقني وهو أعلم بي من نفسي، وهو أقرب إلي من الخلق جميعًا {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}[1].

مشاعر البشر سر من أسرار الخلق

إنها مشاعرنا التي لا يطلع على حقيقتها إلا خالقها سبحانه {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[2].

والمشاعر البشرية من عجائب أسرار الخالق سبحانه فهي ليست قالبًا ملموسًا له أبعاد وحدود، بل لعلها ترتبط بالروح

---

[1] ق: ١٦.

[2] الملك: ١٤.

أكثر من ارتباطها بخلايا الجسد، وإذا كان هذا هو حالها فكيف لبشر أن يعالج ما تعانيه مهما بلغ في مجال العلم ودانت وسائل العلاج والأدوية.

فمثل هذه العلاجات قد تنجح مع خلايا الجسد المحسوسة، ولكن كيف لها أن تصل إلى ما طاقة لها على إدراكه؟

فأوصاف المشاعر واحدة سواء أكانت في حالات الحزن أو الخوف أو الفزع أو غير ذلك، ولكن كل هذا ما هو إلا صورة خارجية فقط، أما حقيقتها فسوف تبقى من أسرار الخالق العظيمة التي جعلها سبحانه دليلًا من أدلة تفرده بالخلق وحده لا شريك له {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[1].

والعاقل حقا هو من هداه الله ليرد الأمر إلى مالكه، ومالك الملك والملكوت هو الله وحده لا شريك له {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[2].

---

[1] فصلت: ٥٣.

[2] يس: ٨٣.

رحمة الله وسعت كل شيء

فمن رحمته سبحانه أنه لم يترك النفوس تعصف بها الأنواء بل نشر من خبايا لطفه وعظيم رحمته ما يكفل أن تمر كل هذه المشاعر المؤلمة مر السحاب، دون أن تنال من سلامة القلب، وطمأنينة الفؤاد، وجعل كتابه الكريم القرآن العظيم هاديا ومرشدا ورفيقا ومؤنسا، فضرب الأمثلة جل شأنه لتكون قدوة لكل مكروب، وبيَّن عاقبة الرضى وحسن الجزاء، فهنيئًا لمن صدق الله في لجوئه إليه، فصدقه الله ما وعد.

وخير ما يصدق به الإنسان مع ربه أن يكون عبدا مطيعا، راضيا بما قسم الله له، لا يسأل إلا الله وما أجمل حديث سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما "قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ

يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ"[1].

الابتلاء من لوازم العبودية

الدنيا ما هي إلا دار اختبار {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[2].

والعبادة الحق تشمل كل ما في حياة الإنسان، حتى سكناته ونبضاته، وكل حركته في الحياة {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}[3].

وثمرة العبادة المقبولة عند الله تعالى تفوق كل وصف وخيال، ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ، مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ

---

[1] سنن الترمذي

[2] العنكبوت: ٦٤

[3] الأنعام: ١٦٢، ١٦٣

عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"[1] قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: " اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[2].

من أجل هذا لم تكن الجنة دارا لأي أحد، بل لمن اصطفاهم الله تعالى، من البشر، ويسر لهم أن يعبدوه، حق عبادته، كما يحب سبحانه ويرضى.

ثم كان الابتلاء والاختبار من بالغ حكمته سبحانه، حتى يعرف كل إنسان خبايا نفسه {وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[3]

وكأن كل ما يلقاه الإنسان من بلاء، ما هو إلا تدريب وامتحان، ليعلم مدى صدقه وإخلاصه لله، ويجتهد في تدارك ما سبق وقصر فيه من تكاليف الطاعة، ليكون أهلًا لما وعد به سبحانه من جنات الخلد والرضوان.

---

[1] صحيح البخاري

[2] السجدة: ١٧

[3] آل عمران: ١٥٤

لا تحسبوه شرًا لكم

فالنفوس عند وقوع البلاء تلجأ إلى الله اضطرارا، ورويدا رويدا يكون التفكر والتدبر، حتى يترسخ الإيمان في القلوب، ويتمكن اليقين من النفوس.

ولعل الشعور بالعجز البشري الفطري أمام البلاء هو الذي يجعل الإنسان يتعلق بالدعاء والرجاء، فيمن أنزل البلاء ليرفعه سبحانه، وهكذا يكون البلاء أحد أسباب تعلق الإنسان بربه ومولاه، ومع الصدق واليقين تهون كل البلايا.

ولابد أن ندرك أن الابتلاء من أقدار الله تعالى التي لا مهرب منها ولا مفر، مهما تعددت ألوانه، واختلفت صفاته، لأنه من جنود الله التي أرسلها سبحانه لتوقظ النفوس من غفلتها، وتعود إلى خالقها بالخوف والرجاء، كما يحب سبحانه ويرضى.

ولعل مما يشير إلى هذه المعاني قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}[1]

وسبحان الله فالآية تبين . والله أعلى وأعلم . أن كل شيء في الحياة يمكن أن يبتلى به أهل الإيمان، سواء أكان الابتلاء بالخوف أو الجوع أو فقدان الأحبة او الأموال وغيرها، وكأن الآية تقطع كل وساوس الشيطان، حتى لا يظن أهل الطاعة أن ما ينزل بهم من بلاء، أو مصيبة دليل عدم رضى من الله، فليس الأمر كذلك، بل الامتحان الذي جعله سبحانه محتما ولازما، لكل العباد، ووعد من كتب لهم الفوز بأعظم الثمرات.

وبالعظم هذه الثمرة لو أدرك المبتلون قدرها {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[2]

---

[1] البقرة: ١٥٥ – ١٥٦.

[2] البقرة: ١٥٧

إنها المغفرة والرحمة والفضل العظيم

نعم يا من وقع عليه البلاء فصبر، إنكم أنتم الذين فزتم برحمة الله تعالى، وأنتم الذين هداهم إلى رضاه، فاصبروا، واحتسبوا الأجر على الله، وأبشروا وكونوا على يقين من موعود الله تعالى آت لا محالة.

والحذر الحذر من أن يقع أحدكم فريسة المقارنة بين ما أصابه وأصاب غيره، فليس الأمر على نحو ما تراه العيون، بل كل شيء بالقدر الذي يقدره الله بحكمته، ويتوافق مع طاقة كل مخلوق: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[1].

والشيء الذي تراه العيون ضخما وكبيرا، قد يكون تأثيره على من ابتلي به خفيفا هينا، وأيضا ما تراه العيون ضئيلا صغيرا قد يكون تأثيره على من ابتلي به شديدا قاسيا، وكل هذا وفق مراد الله تعالى.

---

[1] الملك: ١٤

فالبشر ليسوا جمادات تقاس بالتجارب، بل كل نفس دنيا كاملة مختلفة في معظمها عن كل ما عداها، ولا يعلم حقيقة كل منها إلا خالقها سبحانه.

الأقدار بيد الله وحده

واعلموا أنه ما من مخلوق قط يملك لمخلوق مثله ضرا أو نفعا، وإنما هي أقدار الله يجريها سبحانه على أيدي من يشاء، ولا حيلة لأحدٍ في تغيير القدر أو تبديله، فكل شيء قدره الله أزلًا، فلا تركنوا إلى الأسباب، ولا تعلقوا عليها شيئًا مما يقع، بل هي مأمورة ومحكومة بمراد الخالق سبحانه.

{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}[1].

[1] الحديد: ٢٢، ٢٣

فيا كل من ابتلاه الله ببلاء قد وقع، لا تحزنوا، حتى وإن اشتد بكم الألم، واعتصركم الحزن اصبروا، فما كل هذا إلا لتلوذوا بالله بالدعاء، وتلزموا التضرع والرجاء، فتنالوا النصيب الأوفر من الرضى والرضوان، بفضل الله تعالى ومنه وكرمه.

ولعل مما يخفف من ألم البلاء، أن هذا البلاء هو الذي يدفع المبتلى إلى اللجوء إلى الله تعالى، يشكو إليه ضعفه وقلة حيلته، وهو سبحانه وتعالى خير ملجأ وملاذ.

بينما يوجد صنف آخر ابتلاه الله فنسي شكر النعمة، وغاب عنه الدعاء واللجوء إلى الله سبحانه، والعياذ بالله، {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}[1]

وما ذلك إلا لأن فتنة الخير والسعة تقبل عليها النفس برغبة وسعادة، وقليل من كانت هذه بلوته من يتنبه إلى واجب شكرها والصدق مع الله.

ولهذا

فالعبرة بالنتائج والخواتيم، {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}[2].

---

[1] الأنبياء: ٣٥

[2] النساء: ١٩

فاصبروا واحتسبوا الأجر عند الله تعالى، والفرج القريب.

وأحسنوا الظن بالله تعالى مهما طال البلاء، فالفرج آت بفضل الله تعالى وكرمه.

ففي الحديث قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي"[1].

***

[1] صحيح مسلم (٤/ ٢٠٦٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}

إن المصاب ليهون كثيرًا إذا يسر الله للمبتلى من يشاركه ألمه، ويسمع شكواه، فيكون الحوار معه سلوى، وإعانة على الصبر والثبات، وسبيلا إلى الذكر والدعاء.

وليس بالضرورة أن تكون المشاركة مع إنسان بعينه، بل أيضا تكون المشاركة بالحياة مع ما قصه علينا الرب الرحيم، فإنها بلسم وشفاء، وكيف لا وهي كلام الخالق سبحانه، الذي ليس كمثله شيء، سبحانه، وكم من سقيم زالت علته بكثرة تلاوته لآية من كتاب الله، وكلما زاد ألمه أكثر من ترديدها حتى شفاه الله ونجاه.

ولقد امتلأت كتب بأحوال من عالجهم القرآن من كل داء، سواء بكثرة قراءة فاتحة الكتاب الكريم، أم بغيرها من الآيات"[1].

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستغيث بالله عند الكرب ففي الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»[2].

وأهم ما يساعد على نجاح العلاج بالقرآن الكريم هو اليقين، وعدم الشك، وبخاصة إذا كان الألم من آلام المشاعر وليس من أسقام الجسد.

---

[1] ومما يؤكد هذا المعنى ما ورد في الحديث أَنَّ جِبْرِيلَ، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: «بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ»، صحيح مسلم. وهكذا تم العلاج بالرقية الشرعية، دون أي تدخل بالأدوية المادية.

[2] متفق عليه.

التشبث بألطاف الله تعالى

إن أهم ما نصبو إليه من هذا الكتيب، أن يكون من الوسائل، التي نطمع من خلالها أن تنفرج الكروب وترفع الهموم، بإذن الله تعالى، وبخاصة أنها محاولة للتشبث بألطاف الله تعالى ورحماته التي وسعت كل شيء، وعسى أن يكون من عوامل التذكر، كلما اشتد الألم وضاقت النفس، فيسارع المبتلى إلى ربه يبثه شكواه، متضرعا أن يكشف كربه، ويرفع بلواه، فما خاب من تذلل بين يديه سبحانه ورجاه.

ووالله إن التذلل بين يدي الله تعالى والخضوع له، بالاستغاثة والدعاء له أسرارٌ لا يدركها إلا من عاشها بالفعل، وقد صفا قلبه إلا من معية الله تعالى، وكلما تضرع إليه سبحانه غشيته السكينة، واطمأن قلبه، وذرفت عيناه الدموع ليس من يأس وجزع، ولكن مما يجده من فيوضات رحمته سبحانه، فكأنما تغسل دموعه ما بدر منه من يأس أو قنوط، لتحل محلها مشاعر الرضى والسكينة، والاطمئنان إلى أقدار الله تعالى، وأنه سبحانه سيجعل بعد الضيق سعة ومخرجا، وبعد الكرب يسرًا وفرجًا.

الحياة دار ابتلاء

وهذه مشيئة الله تعالى، فاللهم لا أسف ولا اعتراض، بل تسليم ورضى، يارب الأرباب، يا من لا شريك له في ملكه.

وقد يكون الابتلاء متعدد الصور حتى يصبح منه ما لا يلتفت إليه الناس، مع ما يعانونه بسببه، ومن ذلك ما نفعله في حياتنا مختارين راضين، وهو في حقيقته لا يخلو من عناء ومشقة وتعب، ومع هذا لا نشعر بألمه، لا لشيء إلا لأننا ألفناه واخترناه بأنفسنا.

ومن ذلك اعتياد البشر في حياتهم أن يتباروا في إلحاق أولادهم بأنواع التعليم المختلف ويتحملوا في سبيل ذلك الكثير من العناء والسهر والإنفاق الكثير طمعا في يحصل أبناؤهم بعد انتهاء مرحلة التعليم على أفضل فرص في الحياة،

ولو أننا نظرنا إلى الفترة التي يقضيها الطالب في الدراسة حتى يبدأ مرحلة العمل والسعي في الحياة لوجدناها تكاد تصل أو تقترب من الربع من متوسط أعمار البشر تقريبا.

ومع طول هذه الفترة إلا أن الجميع قد ألفوها ولم يعانوا منها بسبب أنها أصبحت الطريق الوحيد . تقريبا . إلى ما يحبونه ويرغبون فيه.

وحياة الإنسان مهما طالت فإنها قصيرة، لأن الله عز وجل شاء أن تكون الحياة الحق هي الحياة الآخرة، والتي فيها الخلود بلا موت.

وإذا قارنا بين ما نفعله في حياتنا وأننا نقبل اختبار الدراسة والإجهاد والتعب والنفقة، طمعًا في نيل ما نبتغيه، مع طول الفترة التي نمر بها بهذه الاختبارات أو الابتلاءات التي أجراها الله على البشر، فإننا نستطيع أن نفهم ونستوعب، أن الابتلاء في الدنيا أمر ضروري، وأن تفاوت البلاء بين الناس بعضهم وبعض، إنما هو بقدر الله تعالى الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، ولهذا ابتلاهم واختبرهم وأقام عليهم الحجة لأنه سبحانه وتعالى أعد لهم نعيما لا ينقطع أبدا، فعن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُوقَفَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ لَا مَوْتَ، يَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ

لَا مَوْتَ، فَازْدَادَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَازْدَادَ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ "[1].

فاستحق هذا النعيم اختبار الدنيا، وهذا الاختبار هو الابتلاء.

فاصبروا واحتسبوا يا من ابتلاهم الله بالابتلاء القاسي الشديد، فحال البلاء بينكم وبين الأهل أو الزوج أو الولد، وياله من عناء، وياله من ألم، تئن له القلوب وتدمع الأعين، لهفة ورحمة وشفقة على من هم أغلى ما في الحياة كلها.

الحكمة من الابتلاء وكيف نواجهه

لَكَم طال الفراق، وزاد الألم، فهل آن لهذه المعاناة من آخر، وهل لهذا الألم من نهاية؟

ولماذا يارب هذه المعاناة القاسية الطويلة؟

يطول الليل والدموع تنهمر ولا سلوى، ولا أنيس بل تفكيرنا فيما يلقاه أحبتنا يجعل النوم يهرب منا، وكأنما نتخطفه قطعة قطعة، حتى أضنى أجسادَنا التعبُ وطول السهر.

[1] مسند أحمد.

يارب كيف السبيل إلى نهاية هذا العناء والابتلاء، فأجسادنا لم تعد تقوى على المزيد، رحماك يارب رحماك، لا ملاذ لنا إلا أنت يا الله.

والله إنه لألم، وياله من ألم:

ولكن رفقا بأنفسكم أيها المبتلون الطيبون، فلن يزول الألم إلا إذا تحقق منكم الرضى، الرضى بأقدار الله تعالى، والإيمان بأن كل ما يجري في الحياة هو لحكمة يريدها الخالق سبحانه. ومهما طال الألم، فلعله كالكير ينفث خبث الحديد، ليصفيه من كل شائبة، وكذلك الابتلاء، يُخلِّص النفس من آثار الذنوب، والخطايا، والتي لا يخلو منها أحد.

وهونا هونا على أنفسكم فليس شرطًا أن يكون ما نحبه لأعز من نملك، لأولادنا وأهلينا وأحبتنا، هو الخير أو الصواب، أو الأنفع لهم، فالميزان الحق لا يعلمه إلا الخالق سبحانه، {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[1] .

بالله عليكم لا تقرأوا هذا الكلام بأعينكم أو ألسنتكم، بل اقرأوه بقلوبكم، بعقولكم، بمشاعركم وحسن ظنكم بالله،

[1] الأنبياء: ٤٧

فكم من أناس تركوا أحبتهم، وأعز الناس لديهم وساحوا في شتى بقاع الأرض، إلى أماكن بعيدة هنا وهناك، طلبا للرزق، وغابوا سنوات وسنوات طويلة، ومع ذلك كان الألم مقبولا ومحتملا، لا لشيء إلا لأننا علمنا أنهم اختاروا ما هم عليه رغبة بأنفسهم، بل تسابقوا إليه طمعًا في أن تكون غربتهم سببًا في توفير الحياة السعيدة لهم ولمن يحبون.

وأما ما يعاني منه أصحاب البلاء، فإن الألم الحقيقي يعود إلى ما تتخيله العقول، مما يلاقيه الأحبة من مشاق وآلام، من الضيق والألم والاضطراب، فما هم فيه لم يختاروه لأنفسهم بل هم مقهورون عليه، ولا حيلة لهم فيه.

وكل هذا صحيح ولكن:

هل نحن الذين نملك بأيدينا مقاليد الأمور، وهل يملك مخلوق من أمر نفسه شيئا؟

لا واللهِ

إنها أقدار الله تعالى التي يجريها على الخلق كما يشاء سبحانه، ولحكمة عظيمة، يعلمها جل في علاه، حتى وإن لم يفطن الناس إليها

{حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ}[1].

ومع هذا فلنكن على يقين أن ما تجسده عقولنا وخيالنا من شعور أحبتنا بالألم ليس بالضرورة أن يكون صحيحا، بل قد يكون الأمر أيسر وأخف مما نظن وأهون كثيرًا.

كيف ذلك؟

لا يعلم خبايا النفوس إلا الله

ومع أن الله عز وجل هو العليم بخبايا النفوس، وما تطيقه كل نفس، إلا أنه سبحانه علمنا أن ندعوه دوما {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ}[2]، لأنه سبحانه وتعالى يحب العبد الذي يطمئن قلبه بأنه سبحانه الذي بيده مقاليد كل شيء، كل شيء في الوجود وفي الكون كله هو بقدر الله تعالى، وفي الحديث عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ، {قَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}[3]"[4].

---

[1] القمر: ٥

[2] البقرة: ٢٨٦

[3] غافر: ٦٠

[4] سنن أبي داود

إن كل ما يشعر به الإنسان هو بأمر الله وقضائه، حتى استشعار الإنسان الألم، له مقدار لا يتعداه هو ما أراده الله تعالى.

وكم من إناس أصابهم الهلع بسبب ما ألم به من جرح صغير، واضطربت لهذا الجرح أجسادهم، بينما أناس آخرون يصيبهم أضعاف هذا الجرح، ولا يتوقفون عنده كثيرا، بل يشعرون بألم طفيف، لا يسبب لهم أي اضطراب أو معاناة، بل هو ألم مما تجري به أمور الحياة دون أن تتوقف لها الحياة.

وليس هذا بالضرورة بسبب قوة الجسم أو صحته وسلامته، بل هو بقدر الله تعالى، وحسن التوكل عليه

فالله سبحانه هو الذي أجرى المقادير وله حكمة، والإنسان ليس آلة، تتكرر حركتها . كما هي . في كل آلة مثلها، دون تغيير. بل كما لا تتشابه بصمات الأصابع في الخلق جميعا، فكذلك المشاعر والأحاسيس لا تتشابه ولا تتكرر، مهما تعدد الناس وتأثروا بنفس المؤثر.

ولهذا نرى في حياتنا كيف يختلف الناس وتتفاوت مشاعرهم تفاوتا كبيرًا، حتى وإن تعرضوا لشيء واحد.

وليس أدل على ذلك من هذا التفاوت الكبير بين الناس عندما يتعرضون لموجات من الحر الشديد أو البرد الشديد، أو غير ذلك، فيختلف شعور كل منهم به على نحو خاص به.

إن ما أريد التأكيد عليه:

أن استشعارنا لما يشعر به أحبتنا ليس بالضرورة أن يكون صحيحا، بل مشاعرنا تضخم ما هم عليه كثيرا، بسبب شدة الحب واللهفة عليهم، فيكون ما نلقاه من الألم، بسبب ذلك هائلًا حتى يكاد يهلكنا ويفتك بنا فتكًا.

وكل هذا يرجع إلى استسلامنا لما تتخيله عقولنا وتضخمه في نفوسنا، وننسى في خضم ذلك أن الله رحيم وأنه لطيف حليم، سبحانه.

ولقد نشأنا صغارا ونحن نسمع قول أهلينا في الأمثال: (رب البرد رب العطا[1] يعطي البرد على أد الغطا[2])

ووالله إنها لحقيقة لو أحسنا اللجوء إلى الله، {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}[3].

---

[1] العطاء

[2] الغطاء

[3] البقرة: ٢٨٦

فكم من غني لم يشعره غناه بالسعادة، وكم من فقير عاش ومات فقيرًا إلا أن السعادة لم تفارقه، بل كانت تشع من عينيه في كل حركةٍ وكل لحظة، آمارات السكينة والطمأنينة والارتياح، وما كل ذلك إلا بسبب الرضى بما قسم الله تعالى، فلا يملك البشر من أمر أنفسهم شيئًا، بل إن الله هو الذي خلق وقدر سبحانه {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}[1]

ولهذا فليكن شاغلنا الحقيقي ليس فيما لا نملكه، ومهما حاولنا الوصول إليه، لن نقدر إلا إذا شاء الله تعالى، بل فيما يجب علينا أن نفعله، أونفكر فيه، وهو الذي تملكه أيدينا.

لابد من التروي والتدبر والنظر في مقادير الخالق، وأنه سبحانه كما أخبر عن نفسه لَيْسَ بِظَلَّامٍ للعبيد، فلابد أن نؤمن أن كل ما يجري في الحياة هو لحكمةٍ أرادها الله سبحانه، ومهما طال الألم، ومهما طال الفراق، فالحكمة موجودة، وأيضًا الرحمن موجود، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[2]

فاطمئن.. اطمئن..

---

[1] الفرقان: ٢

[2] فصلت: ٤٦

إن الأمور ليست كما تتخيلها القلوب والعقول، ولا كما تستغرق فيه الأفكار، فخبايا النفوس لا يعلمها إلا الله، وانظر إلى قوله تبارك وتعالي {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}[1]

الله سبحانه وتعالى أقرب إلى الإنسان من كل خلايا جسده.

والله سبحانه وتعالى يجعل كل نفس تتأثر بما يجري عليها حسب مشيئته سبحانه، فهو الذي يجعل الإنسان يشعر بالسعادة، أو بالألم، أما كيف ولماذا، فهذا من أسرار خلقه سبحانه، فليست طبائع البشر واحدة ولا متشابهة، ولا يعلم حقيقتها إلا الله، فلم يجعلهم الله متطابقين في مشاعرهم، بل يختلفون عن بعضهم البعض اختلافا كبيرا، هذه هي إرادة الله.

وعلى الإنسان أن يستحضر قوله تعالى {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ}[2]، مهما بدا له من شدة وضيق، لأن الله حق، وقوله هو الحق، وأن الإيمان بذلك واليقين به هو الذي ينفعه، وينفع من يحب.

---

[1] ق: ١٦

[2] الشورى: ١٩

ولن يتحقق ذلك إلا إذا استحضرنا الغاية من وجودنا في الحياة كلها.

كما يبينها قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[1] فلابد أن يتحقق معنى العبودية وصدق الإيمان.

وصدق الإيمان أن نحقق ذلك من أنفسنا، فالابتلاء من لوازم العبودية {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}[2]

فكيف يكون الإنسان عبدا بحق، إن لم يصبر وقت البلاء، ويرضى بما قدر الله تعالى.

لا يمكن إطلاقا أن يؤمن أحدٌ إلا إذا صدق مع الله تعالى، وأخلص له العبادة والتوكل، في كل أحواله، في السراء والضراء، ولا يكون أبدًا من الخاسرين الذين أخبر عنهم عز وجل بقوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}[3]، ومعاذ الله أن تكونوا كذلك.

---

[1] الذاريات: ٥٦

[2] العنكبوت: ٢

[3] الحج: ١١

انتبهوا جميعا أيها المبتلون، لا تتركوا أنفسكم للهمِّ والعناء، فالله رحيم فلا تيأسوا ولا تقطنوا، وارفقوا بأنفسكم، إن لم يكن من أجل أنفسكم فمن أجل من تحبون.

كونوا على يقين أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يُنفذ مراده، حتى وإن ضاقت الدنيا، حتى وإن كانت كل المنافذ مغلقة، فالله لا تُعْوِزُه الأسباب، لا تتوقف إرادته سبحانه على مشيئة أحدٍ أبدًا.

ومن أجل ذلك يجب أن نزرع اليقين في الله في أنفسنا، ونتعهده بالرعاية،

حتى تستشعر النفوس والقلوب معنى طاعة الله، كأنها تري حكمته جل في علاه أمام أعينها، فتطمئن وترضى.

ففي الأثر عن الحسن رضي الله عنه: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي، وَلَا بِالتَّمَنِّي ، إِنَّ الْإِيمَانَ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ»[1]

فليكن اليقين في رحمة الله حقيقة في القلب تصدقها الجوارح جميعا، وليس فقط أقوال تمر على الآذان، دون أن يكون لها في النفس صدي أو أثر يذكر.

---

[1] مصنف ابن أبي شيبة

نعم، فالله رءوف بعباده، وإن طال الفراق، فإنه سبحانه هو الحافظ وهو أرحم الراحمين.

ولقد عشت بنفسي، ورأيت بعيني قصة تحكي كيف يكون الرضى بقضاء الله تعالى، على كل الأحوال، وما أحسب إلا أن هذا الرضى ما هو إلا نعمة من نعم الله تعالى على الإنسان، التي لا تحصى، يوفق سبحانه له من يشاء، فكونوا أهلا لعطية الله هذه، بالصدق مع الله، والاطمئنان به {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[1]

من واقع الحياة

ومن الأمثلة الواقعية أنه كان لي زميل في العمل يبلغ من العمر . في هذا الوقت . أربعين سنة أو أكثر قليلا، له بيته وأولاده، وكان سعيدا في عمله، وحياته تماما، لا يُرى إلا مبتسما، حتى ابتلاه الله بمرض عضال جعله يقيم في المستشفى فترة ليست قليلة، وكنا كلما زرناه وجدناه بنفس ابتسامته الصافية الراضية، فنظن أن الأطباء قد أحسنوا علاجه، فكان سعيدًا

[1] الرعد: ٢٨

بذلك، ولكن سرعان ما علمنا أنه انتقل إلى بيته، حيث لم يصبح الاستمرار في المستشفى مفيدا، وشعرنا بتوجس وقلق بسبب ذلك، وكنا في حالة من الاضطراب ونحن نفكر في زيارته بمنزله وماذا نقول له وماذا يكون حاله بعد ما علمناه من حالته.

وبالفعل ذهبنا إليه في بيته..

ولكن وأقسم بالله أني صادق في ذلك وليس من قبيل تزيين القول، إذ دخلنا عليه وهو ممددًا في سريره، وقبل أن نتكلم نظر إلينا، والابتسامة تملأ وجهه، فظننا أنه لا يعلم حقيقة حالته المرضية، ولكننا فوجئنا به وهو يقول: إن الأطباء قالوا له إن المرض قد أصبح كالوحش، ولم يعد بيدهم شيئٌ لعلاجه، فقط أقوى المسكنات، طمعا في تخفيف الألم قدر المستطاع.

هل كان هذا الشاب وهو يعاني سكرات الموت ويعتصره من الآلام ما لا يقوى عليه إلا من أفاء الله عليه برحمته، هل كان من ملائكة الله الذين ليسوا كبقية البشر؟

أم كان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تربوا بين يديه صلى الله عليه وسلم فاطمأنوا باليقين بالله، وحسن التوكل عليه والرضى بقضائه، وقدره؟

لا والله لم يكن هذا ولا ذاك، بل كان واحد منا ولكنه كان دائم الذكر مطمئن النفس، بأن كل ما يجري في الكون هو بقدر الله تعالى، فلم يفزع ولم يقنط.

كانت له زوجة وأولاد، وكذلك أهل وأصدقاء، ومع كل هذا كان ألم المرض يعتصره اعتصارًا، ولكنه كلما أفاق من صراع الألم يبتسم ويقول: الحمد لله الحمد لله.

منْ للزوجة والأولاد الصغار الذين لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا، بل هم في أشد الحاجة إلى الرعاية والأمان؟

ومع أنه يدرك تمامًا ما هو مقبل عليه، إلا أنه مبتسم، في رضى وتسليم تام

والحمد لله، لقد اطمأن قلبه بحمد الله، ومن توكل على الله كفاه.

إنه الامتحان، وقد أخبر سبحانه أن هذا الامتحان سيمر به كل من طمع في رضاه سبحانه، {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}[1]

لعل رضاه في هذه المحنة الشديدة، التي أتت على الأخضر واليابس بالنسبة له، كانت سببًا في أن كافأه الله تعالى بأن أصبح أولاده في أحسن ما كان يتمناه لهم، من توفيق وهداية ورشاد.

كيف تم ذلك؟

إنه سبحانه وتعالى الحكيم الخبير، الذي بيده مقاليد كل شيء، وقد أخبر تبارك وتعالى هذا الخبر بقوله: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا}[2]

فلتكن لنا في قصص الصالحين سلوى، وعبرة تقربنا من الله أكثر، ولنتذكر قوله تعالى: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[3].

---

[1] العنكبوت: ٣

[2] النساء: ٩

[3] الكهف: ٤٩

الألم لا ينافي الرضى

لأن الألم من الأمور البشرية التي لا تقوى الأجساد على تجاهلها، ولكن الرضى أن يوضع الألم في أضيق قدر ممكن، ويدل على صدق ذلك أن تستمر حياة المبتلي كما هو معهود له، وكلما اعتصره الألم سارع إلى لقاء الله تعالى، ولا يترك الألم يعتصره ويفسد عليه حسن توكله على الله تعالى.

فإن كل ما تراه أعيننا من ظلم وظلام، إنما هو الجانب الذي أمكن لعقولنا أن تدركه، ولكن هناك جانب آخر تعجز عن إدراكه العقول، ألا وهو جانب الغيب الذي أخفاه الله تعالى، فلا يطلع عليه البشر، إلا في حينه الذي قدره الله تعالى.

فكل ما يجري في الكون إنما هو لحكمة أرادها الله تعالى، وسوف يزول كل هم وغم لو اطلعنا على ما خفي عنا، ولكن حكمة الله تعالى أن يكون الغيب ابتلاء للبشر، ليميز الله الخبيث من الطيب، {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ}[1]

[1] العنكبوت: ١١

ومهما اشتد الألم، ومهما طال الفراق، فلابد أن نؤمن أن كل هذا هو خير، لأنه بعلم الله وقدره.

كيف يارب؟؟؟

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَجِبْتُ مِنْ أَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ، كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْرًا"[1].

أعرف أيها الكرام الطيبون أن الألم قاس وشديد، ولكن هكذا يتحقق مقام العبودية الحق، وصدق الإيمان واليقين، ولا يمكن أن يقرَّ أحد ويؤمن بذلك إلا إذا صدق مع الله تعالى، وأحسن الظن به سبحانه، ففي الحديث قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي"[2].

فلنظن بالله خيرًا ليحفظ الله لنا أحبتنا، مهما طال فراقهم، فكم من محنة جعلها الله منحة بفضله ومنه وكرمه سبحانه.

---

[1] مسند أحمد

[2] صحيح مسلم

ليس معنى ذلك اللوم عليكم بسبب ما تكابدونه، من حزن وألم.

لا والله.

فهذا أمر فطري من صفات البشر، وقد حزن الأنبياء وتألموا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولكن يجب أن لا يخرجكم إلى حال يأباه الله ورسوله.

لا نقول كونوا كالحجارة لا شعور لها، معاذ الله.

فإنا نعلم أنها قلوب مرهفة رقيقة، تحزن وتتألم، ولكن نذكركم بالله تعالى، فلا تتركوا الخوف والألم يخرجكم عن الطاعة، فالله سبحانه وتعالى هو الذي قدر ذلك، لحكمة يعلمها سبحانه، وهي خير، فأكثروا من قول: اللهم لا اعتراض، اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإن القرآن الكريم لهو خير أنيس، ونعم الرفيق.

وبخاصة إذا ما كان تناولنا لآيات القرآن تناول الذي يتفكر ويستشعر المعاني، ويعيش ما يخبرنا به كتاب الله تعالى من قصص وعبر لنرتقي بأنفسنا، ونكون من هؤلاء الذين أحبوا الله، فأحبهم الله.

وإن لنا فيما يحكيه القرآن الكريم لسلوى وأمل، لأن الذي قصص علينا هذا القصص هو سبحانه الذي قدر الأقدار، ويعلم ما كان وما سوف يكون، ولا يملك ذلك إلا هو سبحانه لا شريك له {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[1].

وانظروا إلى قوله تعالى {وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}:

نعم إن من اهتدى بكلام الله تعالى وصدق به فإن الثمرة المؤكدة هي رحمة الله تعالى، والتي لا شقاء معها أبدًا، وفي هذه القصة نلمس بأنفسنا كل هذه المعاني، التي تجري وتصور كيف يكون بعد الضيق الفرج، وبعد الشدة الراحة والرضى، وكل هذا باليقين فيمن بيده مقاليد كل شيء، جل وعلا.

الأنبياء قدوة وهداية وإرشاد

فهذا نبي الله يعقوب عليه السلام عندما فقد ابنه يوسف عليه السلام، وهو لم يزل طفلًا صغيرًا لا يملك من أمر نفسه

[1] يوسف: ١١١

شيئًا، فاشتد به الحزن حتى ابيضت عيناه هما وألما، وهو نبي الله المختار.

فكونه نبي الله تعالى المختار، ليس معناه أن لا يتأثر بما يتأثر به البشر، ويشعر بما يشعرون به، بل إن بشرية الأنبياء والمرسلين، هي وجه من أوجه رحمات الله تعالى التي ليس لها حد، وذلك حتى يعلم الناس أن ما أجراه الله تعالى على البشر من ابتلاء إنما هو في حقيقته رحمة من الله، حتى وإن كان ظاهره غير ذلك، وليس دليل غضب . والعياذ بالله . ولهذا أجراه على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعا، وهم صفوة الخلق الذين اصطفاهم الله بعلمه وحكمته، ليكونوا مثالًا وقدوةً لغيرهم من البشر، ومحال أن يختارهم الله ثم يغضب عليهم.

بل جعلهم الله قدوة ومثلا ليقتدي الناس بهم ويعلموا أن الله لا يحملهم ما لا يطيقون، ولكنه الاختبار والامتحان.

ولهذا كان أشد الناس بلاء هم الأنبياء الذين اصطفاهم الله وعصمهم من الخطايا، وكأن الله عز وجل يبين للناس أن العصمة وعدم الوقوع في الخطايا لا تمنع من الاختبار والابتلاء، ليتحقق مراد الله تعالى في خلقه، ففي الحديث

رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئل: مَنْ أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً؟ قَالَ: «النَّبِيُّونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، إِنْ كَانَ صُلْبَ الدِّينِ اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ عَلَى الْعَبْدِ حَتَّى يَدَعَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[1].

وقد حقق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، مراد الله تعالى، باليقين به جلا وعلا، وقد علموا أنه سبحانه وتعالى لا يريد بالمؤمن إلا الخير، حتى وإن بدا في أعين الناس غير ذلك، لأن العين لا تحكم إلا على ما تراه، وقد يكون الخير كله فيما لم تره ولم يأت بعد، ومن هنا كانت منزلة اليقين في موعود الله تعالى.

وقد كان من واسع رحمة الله أن جعل الرسل . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . بشرا وليسوا ملائكة، ليعلم الناس أن ما يقع عليهم من بلاء أو هَمٍ، هو مع الرضى حمل ثقيل، ولكنه لا يذهب بالنفس، ولا يقصم الظهر، إذا حسن اللجوء إلى الله.

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم.

ولهذا سرعان ما توجه نبي الله يعقوب عليه السلام إلى ربه، وهو في شدة حزنه وهمه على فقد ابنه {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}[1]، فهو سبحانه الملجأ والملاذ، ولا أحد سواه جل في علاه.

فماذا كانت ثمرة اليقين في الله

إن الله سبحانه وتعالى حفظ له ابنه، بعد أن أُلقي في البئر، حيث لا معين ولا نصير من أحد من الخلق.

وماذا كان يمكن أن يكون حال الأم والأب الذين يعلمون أن طفلهم الصغير هذا حاله، أَلَمْ تكن قلوبهم تنخلع هلعا وخوفا عليه؟

ولو ترك الأب والأم نفسيهما لليأس والقنوط، هل كان يمكن أن ينجو الابن؟

لقد قالوا له إن الذئب قد أكله {وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ}[2]،

---

[1] يوسف: ٨٦

[2] يوسف: ١٨

ولكن قلبه يرفض ذلك، ولا ينقطع أمله في ربه، {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}[1].

ولو أننا تفكرنا بعقولنا بين أن يكون الذئب قد أكله، وبين أن يلقى في الجب، هل كان للخوف أن يزول بذلك؟

لا والله

فكيف ينجو هذا الطفل الصغير وقد ألقي في غيابة الجب، حيث الظلام والجوع، حيث لا دفء ولا أمان، ولا حارس ولا مغيث.

بكل مقتضيات العقول لا يمكن لمثل هذا الطفل أن ينجو،

لماذا؟

لأن العقول تُقدِّر الأمور على نحو ما تستطيع أن تلمسه، من خبرات الحياة، وتصرفات البشر، ومن هذه التجارب قل أن ينجو الطفل الصغير، في مثل هذه الأحوال.

هذا ما تقدره عقول البشر، ولكن الله عز وجل ليس كمثله شيء: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[2]

---

[1] يوسف: ١٨

[2] يس: ٨٢

الأسباب مخلوقة لله تعالى، يوظفها كيف يشاء، حتى وإن كان نقيض ما يعلمه عنها البشر، تماما كما قال سبحانه: {قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}[1]

فالله سبحانه هو الذي خلق النار، وجعلها محرقة، وما كان لنا أن نعلم شيئا عنها إلا بما أطلعنا الله عليه، وأما ما وراء ذلك فلا يعلمه إلا الله، ويملك سبحانه وحده أن يجعلها بردا وسلاما، حتى وهي مشتعلة باللهب، فهذه خصائص خص الله النار بها، وهو قادر على سلبها، أو تغييرها، حتى وإن بقيت الصورة كما هي.

وهكذا كان الحال في الجب الذي ألقي فيه يوسف عليه السلام، قد لا ينجو منه أحد قط، ولكن الذي خلقه قادر على أن يجعله أمنا وأمانا، حتى وهو في هذا التيه، والوحشة والضياع، فالله هو الحافظ وهو سبحانه الذي تولى رعايته.

ولعل ما ينفعنا من تدبر هذه القصة أن يتحول مفهوم التوكل على الله سبحانه من معنى يقوله اللسان، ليكون من الأمور المادية التي تترسخ في النفس، وتصبح حقائق معاينه ملموسة، فيطمئن القلب، وتهدأ النفس والبال.

---

[1] الأنبياء: ٦٩

وقد جسد لنا نبي الله يعقوب القدوة والمثل بقوله عليه السلام {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}

فكلما اطمئن الإنسان ورضي بقضاء الله، كفاه الله ونجاه، ولو بعد حين.

إن اليقين بالله تعالى وحسن التوكل عليه، هو الذي ينفع هذا الصغير في جوف الجب، لأن أسباب الدنيا قد انقطعت، ولم يبق إلا أن ينجيه الله تعالى بسبب من عنده سبحانه، وحتى يوجد هذا السبب وتتم النجاة، فلابد من إظهار واجب العبودية كما يحب الخالق سبحانه ويرضى.

وواجب العبودية في كل هذه الأحوال هو الرضى، واليقين بأن الله إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[1]

إن يعقوب عليه السلام، لم ينف أنه حزين من أجل ابنه، {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ}[2]

ولكن مع شدة الحزن، لم ييأس أو يقنط، أو يصدر منه ما لا يحبه الله.

---

[1] البقرة: ١١٧

[2] يوسف: ٨٤

وكذلك كل مبتلى، لا يترك نفسه للخوف والجزع حتى ينسيانه الطاعة والرضى، واليقين في رحمة الله تعالى.

وحسن اللجوء إلى الله والتوكل عليه حق التوكل، ليس معناه بالضرورة أن يتم مراد المبتلى في اللحظة والتو، ولا أن يستجيب له الله كما يحب هو، بل كما يحب سبحانه وتعالى ويرضى، فالله سبحانه له حكمة لا نعلمها.

ولو أعطي كل سائل مسألته، ما صبر إنسان على ألم قط، وما تحقق مراد الله تعالى من الناس، من واجب العبودية، والتمايز بين المؤمن وغيره، {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}[1].

[1] الزخرف: ٣٢

الصبر والرضى بقضاء الله
خير ما ينفع من نحب

لأن الله سبحانه وتعالى يحب ذلك من عباده، فطوبى لمن رضي وأحب ما يحبه الله.

فالله سبحانه وتعالى هو مقسم الأقوات والأرزاق والأحوال، حتى وإن كانت تجري على أيدي الناس، إلا أنها في حقيقتها بفعل الخالق سبحانه، وليس لأحد من الخلق في الحقيقة قدرة على شيء قط إلا بإذن الله تعالى. {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}[1].

فكونوا مع الله وأنتم على يقين أنه سبحانه الذي بيده مقاليد كل شيء.

ويذكر سبحانه وتعالى أن كل ما يلاقي أهل طاعته في الحياة من عناء وتعب، يهون ويهون بما أعده الله تعالى لهم من جنات النعيم، وهي رحمة الله الواسعة في الدنيا، والجنة في الآخرة.

---

[1] الشورى: ٢٧

فاطمئنوا أيها الكرام الطيبون فإن ما يحبه الله لنا خير مما نحبه لأنفسنا، ولا تنشغلوا بالتفكير فيما يلقاه الغائبون من عناء ومشقة، فرحمة الله واسعة.

لذلك فلنتمسك باليقين بالله، والاضطرار إليه سبحانه.

ومعنى الاضطرار إلى الله، أن يؤمن القلب أنه سبحانه هو الملاذ الأخير، إذا ما تقطعت أسباب الدنيا التي نفزع إليها حين المصاب، فكلها أسباب مخلوقة لله تعالى، ولن تأتي بنتيجة إلا التي قدرها الله تعالى.

ولهذا إذا سجد الإنسان لربه مضطرًا إليه خاشعًا له، مؤمنًا بأنه هو الذى بيده مقاليد الأمور مطمئن القلب، راضيًا بأمره سبحانه، فليكن على يقين أن هذا أفضل ما يمكن أن يقدم إلى الأحبة، مهما كانت أحوالهم وبعدت مسافاتهم.

والرضى أمرٌ ليس هينًا، بل يحتاج إلى تدريب وممارسة، حتى يسهل شيئًا فشيئًا، لمن استحضره نصب عينيه.

ومن استسلم لقضاء الله مختارًا ورضي به، فإنه لن يشعر بأسى أبدًا، حتى وإن أصابه بعد ذلك ما أصابه من صعوبات، فطوبى لمن بكى بين يدي ربه ساجدًا راضيًا بما قدره سبحانه

وقضاه، ليكون من المقربين من الله سبحانه كما يقول عز وجل {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}[1].

فيا أصحاب القلوب الطيبة، والعيون الباكية، ظنوا بالله خيرًا، إنكم لا تعلمون ما يخفيه لكم من خيرٍ وبركة، واستعينوا باليقين، وتفكروا كيف أن الطاعة هى خير ما ينفع الأولاد عند الله سبحانه، كما يبينه قوله تعالى {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}، وانظروا إلى قوله عز وجل {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا}، وأن هذا الفضل هو من رحمت الله تعالى {رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}.

فبالله عليكم عيشوا هذه المعاني وكأنكم تعاينوها بعقولكم وقلوبكم فإنها حق والطريق إليها هو الطاعة والصلاح.

ولا يعلوا صلاح فوق صلاح النفس التي ترضى بما قسم الله، وتقر له بالعبودية كما يحب سبحانه تعالى ويرضى.

فكونوا كذلك أيها الكرام الطيبون، وثقوا أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ولن يضيع سبحانه من تحبون أبدا، حتى

---

[1] العلق: ١٩

وإن طال الفراق، واشتد الألم، فالرضى بما قدره الله تعالى طاعة، وصبر ومصابرة {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[1]

ولْتطمئن القلوب، أن ما يصيبها من محن، لابد أن يكون له ما يعادله من الرحمة والخير والعطاء الجميل.

لأن الذي ابتلى الناس بما أصابهم، هو الذي أخبر عن نفسه سبحانه أنه لا يظلم، فمن رَضِي فلينتظر الفرج والجائزة، ولا يعجل، فإن المقادير تجري بحكمة، قد لا يعلمها البشر ولكنها موجودة، ومن تيقن من ذلك فاز وغنم، وهدأت نفسه واطمأن قلبه، {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[2].

فكل شيء في الحياة يجري بإذنه سبحانه، وليس هذا فحسب، بل إن كل ما يفعله الناس، ما هو إلا إظهار لما سبق في قدر الله تعالى أن يقع {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى}[3]، فالذي يجري بأيدي العباد إنما هو قدر الله تعالى ،ييسر له من

---

[1] آل عمران: ٢٠٠

[2] التغابن: ١١

[3] الأنفال: ١٧

يشاء، ويسخر له من يشاء، ليتم كل ما في الكون على وفق مراده سبحانه.

وما يقع من العبادِ بأيدي بعضهم على بعض، إنما هو قضاء الله تعالى وقدره {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[1]

فكل ما يصيب الإنسان من بلاء أو ألم فهو بقدر الله تعالى، ولحكمة يريدها تبارك وتعالى، ولأنه الخالق سبحانه وقد خلق الإنسان لعبادته، فهو يحب أن يلجأ إليه عبادُه بالدعاء والرجاء حيث يقول عز من قائل: {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا}[2]

وكأن هذا الألم وكأن تلك المعاناة المراد منها هو "التضرع"، ولولا البلاء الذي يقع لقست القلوب، وما تضرعت إلى الله.

والتضرع هو الخضوع والدعاء والابتهال والبكاء بين يدي الله تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[3]

---

[1] التوبة: ٥٢

[2] الأنعام: ٤٣

[3] غافر: ٦٠

فالذين لا يلجأون إلى الله تعالى بالدعاء، هم المستكبرون، وهم الذين ظنوا أنهم الذين يملكون أقدارهم بأيديهم، فكانت عاقبتهم سوءا والعياذ بالله.

أما الذين تضرعوا وتعلقوا بالدعاء، فقد أدركوا أن كل الأسباب الدنيوية ما هي إلا أقدار الله يجريها على أيدي العباد، وأنه ما من مخلوق مهما بلغ من قوة وسلطان يملك لأحد ضرا ولا نفعا إلا بإذن الله تعالى، وكل هذا من تمام العبودية الحق لله رب العالمين.

ومن استوعب هذا لن ييأس أبدا ولن يقنط من رحمة الله تعالى، مهما طال الفراق، واشتد الألم.

إن التفكر في كلام الله تعالى ومجاهدة النفس حتى تعيش معاني القرآن وكأنها روح تجري في خلايا الجسد، وليست ألفاظا تقرأها العيون أو تنطق بها الألسنة، بل بلسم يشفي النفوس ويريح القلوب، كما أخبر سبحانه {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}[1].

كلام الله تعالى ليس مثله كلام البشر أبدا، بل هو الصلة بالخالق سبحانه الرحمن الرحيم، وكلامه سبحانه وتعالى يَنْزِلُ

[1] الإسراء: ٨٢

بالرحمة والشفاء على النفس بقدر يقينها في الله تعالى، وتصديقها لما وعد سبحانه وأخبر.

فكونوا أيها الكرام الطيبون على يقين من ذلك، فرحمة الله وسعت كل شيء فتلمسوها والمسوها، بقلوبكم ومشاعركم، فإنها حق، وليست مسكنات يزول أثرها فيعود الألم كما كان، بل هي الحق الذي ليس كمثله شيء، لأنها صفته سبحانه وفيض عطائه {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}[1].

إن هذا اليقين هو طريق السعادة الحقيقية في الحياة مهما أصاب الإنسان من عناء وألم.

ومن رحمة الله بعباده أنه يحبب إليهم الرضى بقضائه، مهما أَلَمَّ بهم من بلاء، لأنه سبحانه الذي قدره وقضاه {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ}[2]، فالرضى بالقضاء هو تصديق الله تعالى فيما أخبر به من أنه لا يريد ظلما بالعباد، ولهذا فما نراه ظلما، هو في حقيقته ليس كذلك، ولكن كما يبتلي الله بالمرض، والفقر والجوع وغيره، حتى يتلوى من وقع به، لا

---

[1] الأعراف: ١٥٦

[2] غافر: ٣١

تحسبوه ظلما، فقد يزيل من آثار الذنوب والمعاصي، ما كان يكفي للمكوث في جهنم دهرا من الزمان والعياذ بالله.

ومن عوامل تنمية اليقين وتثبيته ما يقصه سبحانه من القصص لنتدبر معانيها، ونعيش مع أنبيائه وأوليائه سبحانه وهم يخضعون لله تعالى بالرضى والحب، مع ما وقع عليهم من بلاء، ويصيبهم من المصاب الأليم.

لا سلامة إلا باللجوء إلى الله دون سواه

فهذا نبي الله نوح يبتليه الله في فلذة كبده وثمرة فؤاده، في ابنه وأقرب الخلق إليه، ابنه الذي تعلق به قلبه، وطمعت نفسه أن يكون سببا في بهجته وسعادته، ولكن الله عز وجل العليم الخبير يُقدِّر أن يفترق الأب الحنون الشفوق المحب عن هذا الابن العاصي العاق، ويتخلى عن كل مشاعره لهذا الابن، مهما كان حبه ولهفته عليه، بل لن يكون الفراق في الدنيا فقط، بل هو فراق في الدنيا والآخرة، {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ

رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}[1]

وانظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام: (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي)، لتستشعر قدر الضراعة والرجاء والأمل، كأننا نسمع صوته الحزين ونرى عينه الباكية، ولكن أجابه ربه سبحانه وتعالى: {قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}[2].

إنه التنبيه حتى لا يتم الاستسلام لهذه المشاعر والأحاسيس التي لا ترضي الله المعبود، فهذا الابن خارج عن مقام العبودية الحق، فاستحق العذاب الأليم، ولا يشفع له أنه ابن نبي، لأنه ركن إلى الأسباب، وليس رب الأسباب، ولم يخضع له سبحانه بالعبودية كما كلف وأمر جل جلاله.

وهنا يظهر مقام النبوة والاصطفاء

فما كان منه عليه السلام إلا أن سارع إلى ربه طالبا العفو والغفران، أن يطلب شيئا قد قدَّر الخالق سبحانه وتعالى

---

[1] هود: ٤٥

[2] هود: ٤٦

خلافه {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[1]

إنه بشر:

ويشعر بما يشعر به البشر جميعًا من مشاعر وأحاسيس تملأ النفس، وتُبكي الفؤاد، وهذا ابنه الذي يراه بعينيه وهو يفقده إلى الأبد، فقدانا لا رحمة فيه، والعياذ بالله، ألا يعتصره الألم لذلك، ويدمي قلبه؟؟؟

ولكنه أيضا هو النبي المصطفى، الذي يرتقي إلى أعلى مراتب العبودية، عن حب ورضا، لأنه يعلم أن كثيرا من الأشياء التي نظن فيها الخير قد تكون هي سببا لأنواع من الشرور لا طاقة لنا بتحمله لو وقع، والعياذ بالله.

إنها رحمة الله تعالى التي تمنع هذا الشر عن كثير من البشر، حتى وإن لم يدركوا هذا الشر الذي يترصدهم، ولكن الله نجاهم، وهو يعلم سبحانه أن كل ما يقع بهؤلاء المبتلين من أهل الطاعة، وإن كان ظاهره قاسيا مؤلما، إلا أنه في حقيقته رحمة، وسرعان ما يزول العناء، وسرعان ما يأتي الفرج بإذن الله تعالى، ومن هنا وجب التصديق واليقين والرضى، وصدق

---

[1] هود: ٤٧

تبارك وتعالى إذ يقول {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}[1]، نعم هو خير لمن رضي ولجأ إلى الله تعالى بالطاعة، والضراعة.

وإن من رحمة الله تعالى أن الغائبين هم من أهل الطاعة، فلا تكتأبوا فالله وليهم، وهو حافظهم، وتنبهوا ولا تستسلموا لما تزينه وساوس الشيطان، فإن الاستسلام لمشاعر اليأس والقنوط هي المهلكة، ولهذا فقد حذر تبارك وتعالى من ذلك إذ يقول: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}[2]، وإن عداوتهم تكون بأن يغلب حبنا لهم وخوفنا عليهم على الرضى والتسليم بما قدره سبحانه، فتكون هذه هي المعصية التي تكون أشد فتكا بمن وقعت به، كما يفعل به الأعداء، والعياذ بالله.

ومن هنا كانت قصة سيدنا نوح مع ابنه لتنتشلنا من السقوط في هاوية الإفراط في المشاعر تجاه من نحب، وننسى حق الله تعالى علينا، والعياذ بالله.

---

[1] النور: ١١

[2] التغابن: ١٤

إن القصص القرآني لا يقصد به التسلية والحكاية . معاذ الله . بل هو ليتعلم كل مبتلى أن ما أصابه قد يكون أخف مرات ومرات مما كان يمكن أن يصيبه، ولكن الله سلم.

إن الاستسلام للألم واليأس، والأنين لن يزيد المبتلى إلا كآبة وحزنا، وهمًّا وعناء، لأنه لم يمتثل لمراد الله، ولم يحقق مقام العبودية الذي خلق من أجله.

يأتي الفرج من حيث لا تحتسب

وما يدريك أيها المبتلى

ما يمكن أن يعوضك الله به إن صبرت على بلائه، ألم يُطَمْئِن سبحانه وتعالى هذه القلوب المكلومة أنها كلما تحقق رضاها وصبرت طاعة لله، سيأتيها ما تحب من حيث لا تحتسب، ويالها من بشرى يبينها قوله تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ* جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ

وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ* سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[1].

وليس هذا فقط في الآخرة، بل قد يكون الفرج أقرب مما يظن العبد الراضي الصادق مع ربه.

هذا الفرج القريب كما في قصة أبي الأنبياء إبراهيم، وولده إسماعيل عليهما السلام.

الفرج القريب لمن اطمأن ورضي..

كما يصوره لنا القرآن الكريم عن حال أبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام وقد بلغ من العمر مبلغًا كبيرًا، ثم يَمُنُ عليه ربه بالولد هو نبي الله إسماعيل عليه السلام، والذي كان عطية الله عز وجل لخليله عليه السلام بعد عمر طويل، انقطع فيه الأمل من الولد، وانقطع معه الرجاء.

ولكن ربُ الأسباب لا تعجزه الأسباب، {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[2].

وهكذا يأتي الولد ليكون قرة العين ومهجة الفؤاد، ويكون العون والسند لأبيه في أمور الحياة {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ}[3]،

---

[1] الرعد: ٢٢ - ٢٤

[2] يس: ٨٢

[3] الصافات: ١٠٢

امتلأت عينه به، وسعدت به نفسه، وهو ينمو ويشب ويكبر في صحة وعافية، ثم يأتيه هذا الأمر الذي لا يطيقه البشر { يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ}[1]

وبالله عليكم أيها المبتلون:

هل يمكن للعقول أن تتخيل هذا الموقف الرهيب المهيب، الأب الشيخ الكبير مأمور أن يذبح بيديه، وبكامل إرادته واختياره، أحب عباد الله تعالى إلى نفسه، ابنه الذي اجتمعت فيه كل صفات الخلق الكريم، وكيف لا وقد اصطفاه الله واجتباه.

أي فجيعة تلك، وأي عناء هذا، وأي ألم؟

ولكنه الرضى بالقضاء واليقين في الله تعالى.

لا يمكن للعقول مهما بلغت أن تصل إلى هذا اليقين إلا إذا اطمأن القلب وصدق إيمانه بأنه مخلوق لله تعالى، ولا يريد به الخالق سبحانه إلا الخير، مهما بدى للعين غير ذلك، فهذا هو اليقين ولا شيء سواه.

وبكل الحب والشفقة، والطمع في أن يمتثل الابن الحبيب لمراد ربه طائعا مختارا، يقول عليه السلام {فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى}[1]،

---

[1] الصافات: ١٠٢

إنه لا يخيره، ولكنه يحثه على الطاعة والرضى، والاستسلام لقضاء الله تعالى، ليكون من الفائزين.

ويتحقق ما يطمع فيه الأب المشفق الحنون الرءوف بابنه، والذي كان طمعه أن يكون الابن عبدا لله حقا، أقوى وأكبر من كل مشاعر الشفقة والحب والحنان، والتي لا تنفع صاحبها مهما بلغت، ما لم تنل رضى الله تعالى.

وهنا يحقق الأب والابن سويا أعلى درجات الامتثال لله تعالى بالعبودية، وليكونا قدوة للعالمين عليهما الصلاة والسلام {قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}[٢].

إنه من الصابرين، والصبر الحقيقي لا يكون إلا مع البلاء، وها هو يستقبل أشد بلاء يمكن لبشر أن يتخيله، أن يذبحه أبوه المحب الشفوق بيديه وبكامل رضاه وإرادته، فهل يصبر على ذلك؟

الموت والحياة قدر الله تعالى على الخلق أجمعين، وقد وقر في قلب الأب والابن أن قدر الله تعالى هو الذي سيكون حتى وإن كان بيد الأب فهو القدر المقدور، وإذا كان كذلك فلا مهرب

---

[١] الصافات: ١٠٢

[٢] الصافات: ١٠٢

منه ولا نجاة، إلا بمشيئة الله تعالى، فليكن التسليم والرضى اختيارا، والرضى لأن الله تعالى لا يقدر إلا خيرًا، مهما كان ظاهره غير ذلك.

فتكون عاقبة الصدق مع الله واليقين في وعده سبحانه خيرا مما يظنون {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ* وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ* وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}[1].

نعم إنهم أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولكنهم بشر، ولهذا ضرب الله تعالى لنا بهم المثل ليكون عونا لكل مبتلى على مجاهدة النفس، والصبر على ما يقع به من بلاء.

لأنه مهما بدا للعقول أن ما وقع من بلاء ومحن هو بسبب كذا أو كذا، أو كان على يد هذا أو ذاك، فإنما هو في الحقيقة قدر الله تعالى، ففي الحديث أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ

[1] الصافات: ١٠٣ : ١٠٧

قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ"[1].

فاطمئن أيها الإنسان، فكل شيء مقدرٌ بقدر الله، وعليك بالتضرع إلى الله، فلا يرد البلاء إلا الدعاء.

ولو يعلم كل مبتلى أن هذا البلاء قد يكون دليلا على مكانته العظيمة عند الله تعالى بصبره ورضاه، لتمنى كل أهل الطاعة أن يقع بهم البلاء {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[2].

والأجر الوافي يكون عند التسليم والرضى، وعدم الاستسلام لليأس، وكما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد مر بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي» قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى»[3].

---

[1] سنن أبي داود

[2] الزمر: ١٠

[3] صحيح البخاري

ومعنى هذا أن الصبر الحقيقي يكون عند شدة المصاب، لأنها هي موطن الاختبار الحقيقي، الذي يتأكد فيه الصدق واليقين مع الله.

أما الحزن والألم الذي يقع من البشر، دون أن يخرج إلى ما يغضب الله فهذا مما عفا الله عنه، ولكن فقط عدم الاستسلام،

كما في الحديث عندما مات إبراهيم ابن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[1]

إنا لله وإنا إليه راجعون

هذا كله مع من؟

مع حبيب الرحمن، خير خلق الله، وخير من حقق العبودية لله سبحانه وتعالى.

وإن لنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

إن الشرع لم ينكر أن تدمع العين ويحزن القلب.

---

[1] صحيح البخاري

ولكن يأبى علينا أن نستسلم لهذا الحال من العناء والألم، أو يصيبنا اليأس والجزع والقنوط.

لهفة الأم ورحمات الرب

ومن هنا كانت السلوى فيما يقصه علينا القرآن الكريم من قصص وعبر، جمعت حالات متعددة للنفس البشرية بكل ما فيها، ومن فيها، لنقتدي بها في تحقيق مقام العبودية الحق والرضى بقضاء الله تعالى وقدره والتسليم به.

وقد نقلنا حال الآباء والأبناء، ونبين هنا حال الأم كما في قصة أم موسى عليه السلام

وهى ليست من الأنبياء، ولكنها أم نبي، يوحي"[1] إليها ربها {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}[2].

---

[1] وكما يقول أهل التفسير: (وَحْيُ إِلْهَامٍ، فَقَذَفَ فِي قَلْبِهَا، الأمر سبحانه، ولَيْسَ بِوَحْيِ النُّبُوَّةِ).

[2] القصص: ٧

أى إذا خفتي عليه فألقيه فى التهلكة، سبحان الله، هذه تقديرات البشر، ولكن للهِ قدرٌ آخر مغاير تمامًا.

وهنا حقيقة الإيمان، التصديق بوعد الله، حتى وإن كان العقل يراه هو الهلكة والضياع.

وتمتثل الأم مستسلمة لمراد الله تعالى، مطمئنة القلب إلى وعده تعالى أنه سوف ينجيه سبحانه، ولكن تسير الأمر على عكس ما تظنه الأم تماما، {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}[1]

وآل فرعون هم أعدى أعدائه، وهم الذين يريدون قتله، فكيف بهذه الأم أن تطمئن على رضيعها وقد أصبح في أتون الهلكة، وما من سبيل ينجيه.

ويصور القرآن الكريم حال الأم والتي تشعر بما يشعر به كل البشر {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[2]

وهكذا تكتمل الصورة في أنظار البشر، أن كل هذه الأسباب لابد أن تؤدي إلى الهلاك لا محالة.

---

[1] القصص: ٨

[2] القصص: ١٠

يا الله..

إنها أم.. وهى من البشر.. وإن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها، فلو تُرِكَت لبشريتها المطلقة لتقطع قلبها ألما وحزنًا، ولتفجرت عينها دمًا، لا دموعًا حزنًا على ابنها،

ولكن الله عز وجل يضطرها إليه لتدعوه، وتكل أمرها إليه وحده سبحانه.

وهكذا كان صدقها مع الله حقيقة، عندما رمت ابنها فى اليم، فكانت النتيجة ربط الله على قلبها وثبتها، لتكون من المؤمنين الطائعين المخلصين.

وتكون النتيجة أن أُلقيَ فى اليم فنجاه الله، ليس بالأسباب التى يمكن للناس أن يتخيلوها، بل بعكس الأسباب، لماذا؟

لأن الذي التقطه هم آل فرعون، ألد أعدائه، وهم الذين ربوه بأنفسهم، وهكذا يغيب عن أمه عمرًا بأكمله، وهو في بيت عدوه، وتخشى الأم أن يقتله في أي وقت، ولكن من يحفظه؟

إن الحافظ هو الله

فلتطمئن القلوب، بعد أن تشاهد عن معاينة ويقين كيف أن الله عز وجل لا تعوزه الأسباب، بل هو سبحانه رب الأسباب، لا يرد قضاءه شيء مهما بلغ.

فلم الخوف ولم الجزع.

فلنقترب من الله أكثر، ولنحسن اليقين به سبحانه، ولنكثر من السجود والدعاء، حتى يربط سبحانه على قلوبنا فلا يكسرنا شيء أبدا.

ولنتضرع إليه تبارك وتعالى لتتنزل علينا رحماته سبحانه، وتتنزل على من نحب، مهما بعدوا وأينما كانوا.

الله أرحم بعباده المؤمنين من الأم بولدها

وليس بالضرورة أن تكون الرحمة بما نظنه نحن، أو اعتدنا عليه ونتوهمه، بل الرحمة الحقيقية هي التي تنزل على النفس فتمسح عنها الهم والحزن، ولا يعلم النفوس على حقيقتها إلا خالقها سبحانه.

ومن قصص الحياة التي تجري على عامة البشر، ونرى فيها لطف الله تعالى، ورحمته التي وسعت كل شيء، هذه القصة

التي قدر لي أن أطلع عليها من خلال برنامج من برامج القرآن الكريم، الذى يتبارى فيه الأطفال فى استحضار القرآن حفظا وتلاوة.

وإذا بالشيخ الذي يقوم على أمر البرنامج يحكي قصة فتاة، اشتركت في المسابقة وسمعنا صوتها من خلال التليفون.

ويقول إن هذه الفتاة كان أبوها يعمل فى إحدى دول الخليج، وكانت معه زوجته، ولم يكن معهما سوى هذه الفتاة، وكان عمرها لا يزيد عن عشر سنوات، ثم مرضت أمها مرضًا شديدًا واحتجزوها فى إحدى المستشفيات.

وكم كان فى نفس المستشفى من أصحاب الابتلاء العدد الكثير.

يقول: ذهبت الفتاة مع أبيها لزيارة أمها بالمستشفى، فماذا حدث؟

وهم فى طريقهم للمستشفى تعرضوا لحادث سير، فمات الأب، وتعرضت الفتاة لإصابات كبيرة ومتعددة، وكسور مختلفة.

وتطوع لرعايتها أحد الأصدقاء، في هذه الظروف الصعبة المضنية.

كثير من البشر لو كانوا فى نفس موقف الفتاة لأصبحوا فى أشد حالات الأسى واليأس والضيق، ولكن مع الله ليس الأمر كذلك.

أقسم بالله لقد سمعتها بأذنى عندما أعلن مقدم البرنامج إنها ستتلو بعض آيات القرآن الكريم عبر الهاتف، أقسم بالله لقد سمعتُ صوتًا كأنه ليس من عالم البشر.. وكأنه صوتٌ يأتى من عالم الغيب.

هل هو صوت الملائكة؟.

أم هو صوت من عالم آخر لا نعرفه؟.

ولكن نعلم أنها بشر، فكيف يملك البشر مثل هذا الصوت الساحر، وهذا العمق فى الأداء؟

إن صوتها بكل ما فيه من جمال، يخترق القلب بكل خشوع، وعُمق، تراها بأذنك باكية، متضرعة، ولكنها هادئة مستكينة، وكأنها تقول: "يارب اجمعنى بأبويَّ"

يارب.. ارحمهما كما ربيانى صغيرة

.. يارب.. يارب.. يارب..

وهى أبدًا لم تقل شيئًا من ذلك بلسانها، إنها فقط تتلو آيات الله تعالى، ويعبر عنها حالها.

كم هو مصاب وابتلاء تلك الفتاة؟ إنه لتنوء منه الجبال.
ولكن الله سبحانه وتعالى أنزل عليها وعلى قلبها السكينة، والرضى.
أتظنون: أنها لا تفهم.. ولا تعي..
والله لقد كانت تفهم.. وتعى أكثر بكثير ممن هم فى أضعاف عمرها، ولكنها رحمة الله التى شملتها فنادت بصوتها وهي تتلو آيات الله تعالى كأنما تقول أيها البشر: تعالوا إلى طاعة الله.. تعالوا إلى رعاية الله.. تعالوا لتنالوا رحمات الله.
فهنيئًا لكل من رضي بما قسم الله له، فاستحق بهذا الرضى أن يكون أهلًا لرحمة الله.
إنه سبحانه وتعالى هو الرحمن الرحيم، نقولها دوما فى صلاتنا "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"
على ألسنتنا دوما جميعًا،
فهل تفكرنا في معانيها، وهل تركناها تغشى قلوبنا ونفوسنا، لتحس بها خلايا أجسادنا؟
إننا نقولها فى اليوم مراتٍ.. ومراتٍ.. ومرات.. فهلا عشناها وتدبرنا حقيقتها ومعناها

إنه هو الرحمن الرحيم، هو الذى وعد.. ولن يخلف وعده أبدًا.. سبحانه وتعالى..

فاطمأنوا..

ولكن فقط كونوا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»[1] فَأَكثِرُوا الدُّعاءَ. اسجدوا.. اقتربوا.. يقربكم الله سبحانه وتعالى إليه.. ويربط على قلوبكم.. فتكونوا أسعد السُعداء، حتى وإن كنتم فى أعين الناس من التُعساء.

جعلكم الله من خاصته وأهل طاعته أيها المبتلون، ويسر لكم أموركم بكل الخير، وحفظ لكم أحبتكم كأحسن ما يكون الحفظ، وجعلهم بإذن الله تعالى قُرة أعينٍ لكم فى الدنيا قبل الآخرة إنه سميع.. قريب.. مجيب الدعاء.

{فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}

[يوسف: ٦٤]

******

[1] صحيح مسلم

{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}

[سورة آل عمران، الآية: ٨]

******

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه.

****